بيروت وأعمال مؤرّخيها

د. وجيه فانوس



المدينة في سياقي التأريخ والتاريخ

ما من شكَّ في أنَّ «سِتّ الدُّنيا»، «بيروت»، كما يقول عنها شاعر العرب الكبير نزار قبَّاني، تحتل مطرحاً شديد الأهميةِ في ذاكرة أبنائها وروادها العرب والعالميين، منذ أن كانوا وكانت. لقد ارتبطت حياة «البيارتة» بهذه المدينة، على امتداد دهور مديدة؛ بدأت من ما قبل العهد الرُّوماني، الذي حفظ التَّاريخُ بعضاً من معالِم أحداثِهِ وطبيعةِ أمورِهِ، بمحطات عديدة؛ وها هي، الآن، ما برحت تشقُّ عُباب القرونِ، وتحطُّ عند شواطئ السِّنين، وتختالُ مَزْهُوَّةً بين العهود، مُعايِشَةً تَبَدُّلَ الأحوال، فراشةَ حياةٍ وعصفورةَ عطاءٍ وفلذةَ وجدان.

اقترن البيارتة، منذ القدم وإلى اليوم، بالمناطق المتعددة والمتمايزة، فيما بينها، لمدينتهم هذه؛ فلطالما سلكوا شوارعها المتنوّعة، ولكلٍّ واحد منهم لقاءَهُ التَّاريخي والعاطفي بأحيائها؛ بل ما برح، لكثيرين من ناسها، عِشْقٌ مُقَدَّسٌ لِما تعبق به أزقَّتها وزواريبها من ذكريات وتطلُّعات. والحال لا يختلف، على الإطلاق، مع أسواقها؛ إذ يتلاقى القومُ فيها، ساعين في مناكب العيشِ، على ما في كلٍّ منهم من تفاوت عن الآخر؛ ولا يختلف الحال مع معاهد العلم فيها، التي ما برح الدَّهر يَشْهَد لتفوّقها، في العلم وإنارتها للعقول؛ وكذلك هو الأمر، مع سائر مؤسَّساتها؛ وكيف لا، وقد شهد عالَمُ الأعمال والتِّجارة والإدارة، عبر منعطفات العصور وتوالي أحداثها، لريادتها وإبداعها. لا شكَّ، كذلك، أنَّ بيروت، رغم كلِّ ما صارت تعانيه من مآسٍ في الزَّمن الراهن، ما برحت تحتل صدارة كبرى في ضمير ناسها، من بيارتة وسائر اللّبنانيين، بل وكثير جداً من العرب والأجانب؛ وما انفكَّت تشكِّل منهلاً ثرَّاً للتَّعمُّق في عديد من منطلقات أحداث التَّاريخ، قديمه ووسيطه وحديثه وراهنه؛ بل ما انفكَّت بَيْضَةَ قبَّان أساسٍ تدور حولها، ومن أجلها وفي سبيلها، سياسات دُوَلٍ تسعى إليها، عبر حروبٍ ومعاهداتٍ وتحالفاتٍ لا حصر لها ولا لاكتناه كثير من غوامضها أو أسرارها.

كثر انهمكوا في الكتابة عن بيروت، ولبيروت؛ منهم من نَظَم الأشعار في مراتعها، ومنهم من لَحَّن الأغاني لاسمِها وذِكرها، ومنهم من وضع القصص والرِّوايات عن أحداثها وشخصياتها، ومنهم من دبَّج الخُطب والمقالات، عن حالاتها وأوضاعها، ومنهم، كذلك، من سعى إلى البحثِ في بعض أحداث تاريخ المدينةِ والغَوْصِ، إلى ما استطاع إليه وصولاً، مِن أعماقِ هذه الأحداث؛ عارضاً أو شارحاً أو محلِّلاً وكذلك مستنتجاً.

واقعُ الحال، إنَّ تاريخ بيروت، بِحَدِّ ذاته، عتيقٌ عريقٌ وحديثٌ حي، كبيرٌ ومتنَوِّعٌ، غنيٌّ ومتشعِّب، معلوم ومجهول، في آن. ظلَّت كثير من محطات تاريخ بيروت، ولربما مغاليقه، عَصِيَّةً على التَّمكُّن من الوصول إلى جَمْع متنامٍ ومتكاملٍ لها؛ كما ظلَّ كثير من الدِّراسات المتفرّقة عن بيروت، متمرّداً على محاولات عديدة للضمِّ بين أشتاتها، والعمل على ربطِ ما تفرَّق أو تنافر من شذراتها، ولمِّ شملِ ما تناثر من كنوز معارفها. واقع الحال، لقد اختار كثيرون من الباحثين، في مجالات التَّأريخ لبيروت، المنصرفين إلى الكشف عن فضاءات تاريخها، أن يَقْصُرَ كلٌّ منهم، جهده المركَّز، في العمل على جانب من مجالاتها، أو أن يحصر اهتمامه بزمنٍ محدَّدٍ من أزمنتها، أو أن يركِّزَ جهوده على واحد من موضوعاتها الغزيرة وشؤونها الوفيرة؛

ولا بدَّ من الإشارةِ، ههنا، إلى أنَّ هذا الاختيار هو اختيار طبيعي وعملي وواقعي، تفرضه سياقات البحث، وتدعوه مسارات المنطق العلمي في العرض والدَّرس والاستنتاج.

وكيف ما دار الأمر، فإنَّ لكلِّ من سعوا إلى وضع تاريخ عام أو محدَّد عن هذه المدينة، أن حازوا، كلٌّ بناءً على ما قدَّم من جهد، وأبدى من مقدرة، وتوصَّل إليه من نتائج، فوزاً نالوا به خير العِلم، وتنافساً فيما بينهم، لنوالِ فضل السَّعي في الحصولِ على إحدى مراتب سموِّ المعرفة. ومن هنا، فلم يكن السعيً إلى تأريخ ما لبيروت، ليخذل أحداً ممن اهتمُّوا بتأريخ ما وقع من أحداث على أرضها، وما عاشه ناسها وعايشوه من أمور. ولم يكن الغوصُ في تاريخ بيروت، كذلك، ليتخلَّى عن من أحسنوا التَمسُّكَ بتلابيب موضوعيَّته وأجادوا التَّمسُّك بقوَّة حقائقه؛ فعاشوا، جميعاً، مؤرِّخين، يسعون وراء الحدث والواقع، وتاريخيين، يدرسون الحدث ويتبعونه عرضاً وتحليلاً واستنتاجاً، بفيضٍ مِن نِعَمِ هذا الاهتمام؛ وباتوا وقد إسْتَحْوَذَ كلاًّ منهم، ما استطاعه أو استحقَّه من شهرةٍ وفضلٍ؛ فانتشر ذِكْرُهُ، عَبْرَ الحقب، مؤرِّخاً لبيروت، وواحداً من سدنة ذخائر أيامها وأحداثها.

تحوي مكتبة تأريخ بيروت وتاريخها، اليوم، ذخائر أساس ودراسات لن يمكن إغفالها، وهذه جميعها ممَّا يساهم، إلى حد كبير وفعَّال وبما يمكن من موضوعية التَّاريخ، في تكوين صورٍ وجود المدينة وتشكيل عوامل تفاعلها مع العيش وفهم عديد من قيم ناسها وتطوُّر هذه القيم بين السلب والإيجاب. نعم، مكتبة تاريخ بيروت وفيرة المحتويات، عمل كثيرون في إغناء فضاءات وجودها؛ وسعوا، كلٌّ وفاق قدراته واستناداً إلى رؤاه ومنطق عمله، إلى إضافة ما أمكنه من لبنات المعرفة إلى بناية هذه المدينة.

ليس الغرض من هذه السلسلة الموجزة، استعراض جميع ما قدَّمه المؤرخون، ودارسو التَّاريخ، من توصيفات وتحقيقات وشروحات وتحليلات واستنتاجات؛ بقدر ما هو سعي إلى استعراضٍ، ولو موجز ومبستر، لبعض ملامح من مناهج هؤلاء، في التعامل مع بيروت.

بين الأهميَّة الأساس والتَّشتُّت

لعلَّ من أشهر مَن احتلَّ موقع الرِّيادة، بين النَّاس، في الكتابة عن بيروت، هو «صالح بن يحي»، المتوفَّى سنة 1446م. وذلك في كتابه الموسوم «تاريخ بيروت»؛ وهو عينه، الكتاب الذي عمل على إتمامه «حمزة بن أحمد بن سابط»، المتوفَّى سنة 1520م.؛ عِلماً أنَّ هذا العمل، لابن يحيى وابن سابط، لا يتناول التَّاريخ المباشِر لبيروت، بقدر ما يهتم لتاريخ بني تَنوخ، الذين استقرُّوا، منذ سنة 1262م. في حكم ما يُعرف بمنطقة «الغرب» في لبنان، الواقعة عند التُّخوم الشرقيَّة الشماليَّةِ لبيروت؛ والتي يعرف من قراها، حالياً، «شِملان» و«عَيْناب» و«سَرحَمول»؛ ومن هذا الذي جمعه ابن يحيى وابن سابط، في ما يقارب 127 صفحة، تستغرق المادة المباشرة عن تاريخ بيروت في 19 صفحة فقط.

من جهة أخرى، فإن «محمَّد خليل المُرادي» يذكر، في كتابه «سِلك الدُّرر في أعيان القرن الثَّاني عشر»، مؤلَّفاً، يحمل أيضاً، عنوان «تاريخ بيروت»؛ مُشيراً إلى أنَّ هذا العمل من وضع «أحمد البيروتي»؛ غير أنَّ كلَّ ما يتعلَّق بهذا العملِ وواضِعِهِ، ما برح مجهولاً حتَّى اليوم. ولذا، فإنَّ أمر البحث التَّأريخي لبيروت، يظلُّ محصوراً بشكل أساس في ما وضعه «صالح بن يحيى»، في القرن الخامس عشر الميلادي، وتابعه فيه «حمزة بن سباط»، في القرن السادس عشر الميلادي، إلى أن وضع الأب «لويس شيخو» اليسوعي، المتوفَّى سنة 1927م.، بتوصية سنة 1915، من والي بيروت «عزمي بك»، مُصَنَّفَهُ الذي حمل، كذلك، اسم «تاريخ بيروت»؛ وكانت النِّيَّة، بناء على توصية الوالي «عزمي بك»، أن يسعى الأب «شيخو»، إلى متابعة ما توقَّف عنده كتاب «صالح بن يحيى»، إنطلاقاً من المراحل الأخيرة من عهد دولة المماليك، وصولاً إلى مرحلة اندلاع أحداث الحرب العالميَّة الأولى، سنة 1924. ولقد نُشِرَ هذا العمل للأب «شيخو»، بدايةً، على دفعتين، في المجلَّدين 23 و24 من مجلة «المَشْرِق»، لسنتي 1925 و1926؛ إلى أن طُبِعَ في كتاب مستقلٍّ سنة 1926. وتجدر الإشارة، ههنا، إلى أن ما يورده «شيخو»، من تأريخه لبيروت، بشكل عام، يظلُّ قائماً ضمن كثير من الإيجاز والإلماح، من دون أن يقتحم واضعه كثيراً من مفازات التحقيق، ويعمل على نزع النقاب عن ما يعتبر من معميَّات الأحداث. ولذا، فإن ما قام به «شيخو»، من تأسيس لا يمكن نكرانه في العمل التَّأريخي والتَّاريخي لبيروت، فإنَّه لا يمكن أن ينتهي إلى مصاف البحث التَّأريخي المعمَّق ولا يرقى، في كثير من مطارحه، إلى مصاف التحليل والاستنتاج الموضوعين أو الخاليين من كثير من شوائب ما يلمُّ بالأمور من غموض أو مُغلقات.

ظهر في سنة 1917 كتاب باللُّغة التُّركيَّة، وضعه «عبد الغني سنِّي بك»، عنوانه «حادثة بيروت»؛ كما ظهر، كذلك، كتاب «ولاية بيروت»، من وضع «محمَّد بهجت» و«وفيق التَّميمي». ولئن كان كتاب «سنِّي بك»، يعرض للقصف الذي طال المدينة سنة 1912، وكان «بهجت» و«التَّميمي» قد سعيا إلى نشر معلومات، تمكنّا منها، عن ما كانت تتألَّف منه بيروت من مناطق؛ فإنَّ كلَّ هذا ظلَّ ضمن العمل على تغطية تأريخيَّة لزمنٍ بحدِّ ذاته، أو لحادثةٍ بعينها، أو لمحيطٍ مكانيٍّ أو زمانيٍّ مقصورٍ على ما فيه؛ ولم يصل الأمر ليكون من باب الدَّرس الشُّمولي للتَّاريخ والعمل التَّواصلي المعمَّق مع شؤونه وقضاياه، ولا من باب البحث المنهجي الموثَّق، إذ السَّعي إلى وضع تأريخ يشمل وجود المدينة ويكون، في الوقت عينه، مرجعاً تأسيسيَّاً موثوقاً ومعتبراً للتَّعامل مع أمور تاريخها وموضوعات هذا التَّاريخ على مرِّ الأجيال.

كان لعشرينات القرن العشرين، من جهة أخرى، أن تشهد ظهور بعض الأعمال غير العربية عن بيروت؛ ولعلَّ من أبرز هذه الأعمال ما وضعه، سنة 1921، الأب «هنري لامنس»، Henri Lammens، المتوفَّى سنة 1937، بعنوان «La vie universitaire a Beyrouth sous les Romains et le bas empire»؛ وكذلك، ما وضعه، سنة 1925، «بول كولينيه Paul Collinet»، المتوفَّى سنة 1938، في كتابه - «Histoire de lÉcole de droit de Beyrouth ، «L’école de droit de Beryte au VIe siècle»؛ وكذلك ما وضعه، سنة 1952، كلٌّ من «رينيه موتيرد Rene Mouterde» و«ج. لوفاري J. Lauffray»، في كتابهما المشترك، «Beyrouth, ville romaine: histoire et

.«monumentsويُظهر التوجُّه التَّأريخي العام، لهذه المؤلَّفات، أنَّ الاهتمام الأساس فيها قد أنصبَّ على تبيان للروابط الرُّومانية، عامَّةً، والبيزنطيَّة، خاصَّة، التي شدَّت بيروت إلى هاتين السلطتين أو الحضارتين، وتحديداً من خلال بعض بقايا الشَّواهد الأثريَّة العمرانيَّة القائمة في المدينة .

شهدت أربعينات القرن العشرين، وربَّما بتأثير من نَيْلِ لبنان الاستقلال الوطني، انطلاقاً لعديد من محاولات تأريخ أمور من بيروت، وخاصَّة تلك المعاصرة لذلك الزَّمن؛ ومن هذا القبيل كتاب «مَوْطِني بيروت»، لـ«أنيس النُّصولي»، وهو بحث لا يتجاوز 38 صفحة؛ كما ظهر في سنة 1963، كتاب تجميعي لـ«إبراهيم نعُّوم»، أسماه «بيروت في التَّأريخ»، وهو في الواقع جَمْعٌ لعملين، أحدهما لـ«داود كنعان»، والآخر لـ«حسين طبَّاره»؛ والأصل في هذين العملين أنَّ كلاًّ منهما مقال مُطَوَّل، وقد أضاف «نعوم»، إلى هذين دراسةً له من 172 في موضوع «بيروت بين 1870 و1962». وكان، ضمن هذا الاحتفال بنشر أعمال تتطرَّق إلى بيروت، أن ظهر في سنة 1964، كتاب من وضع «يوسف الحكيم»، وسمه مؤلِّفه بـ«بيروت ولبنان في العهد العثماني»؛ تلاه ثلاثة أعمال، أحدها حمل عنوان «الجوامع والمساجد الشَّريفة في بيروت»، لـ«عبد الرَّحمن الحوت»، سنة 1966؛ وكتاب «مساجد بيروت»، وقد وضعه «صالح لمعي مصطفى»، سنة 1968؛ وكتاب «تاريخ المساجد والجوامع الشَّريفة في بيروت»، الذي وضعه الشَّيخ «طه الوَلي»، سنة 1973. وهذه جميعها، كانت، وكما هو بيِّن من توجهاتها وطبيعةِ تعاملها مع موضوعاتها، من الأعمال الموجزة، أساساً، أو من الدِّراسات ذات الاهتمام المحصور باهتمام معيَّن لا تتعدّاها على الإطلاق.

غِنى الجهد البحثيّ وتنوُّعه مع تَزايُد التَّنوُّع المعرفي

لقد تنوَّعت توجُّهات البحث التَّأريخي لمدينة بيروت، منذ المحطَّات الأولى لأربعينات القرن العشرين؛ فَلَئِن شَهِدَت، عشرينات القرن، جهوداً من الاهتمام التَّأريخي، التي ركَّزت إضاءاتها المعرفيَّة على الجوانب الرُّومانية والبيزنطيَة، من وجود المدينة؛ فإن أربعينات هذا القرن، بدأت تشهدُ لانشغالاتٍ تأريخيَّةٍ اهتمَّت بالتَّنوير على الجوانب العربيَّة والعثمانيَّة، من وجود المدينة. وقد يكون ثمَّة فاعليَّة واضحة، في هذا المجال، تعود إلى نَيْلِ لبنان الاستقلال، سنة 1943؛ وما تلا ذلك، مِن ظهور قويٍّ للاهتمامات البحثيَّة الوطنيَّة، بعيداً عن المفاهيم التَّثقيفيَّة، التي كانت مهيمنة، منذ مطلع عشرينات القرن، زمن سلطة الحكم الانتدابي الفرنسي ومفاهيمها. صار من الطَّبيعي، في هذه الحال، العمل، الموضوعي والعلمي، على إظهار الهويَّة التَّأريخيَّة الفعليَّة للبنانيين، الذين منذ أن ضمَّهم جناح «دولة لبنان الكبير»؛ وقد بات لهم، مع زوال سلطة الانتداب، وجودهم الوطني المستقل، بدءاً سنة 1943؛ بل صار، لزاماً عليهم، الخوض العلمي المنهجي، في ساحات مسؤوليَّة تأريخ شخصيَّتهم في الوطن، عبر وجودهم الحقيقي والعملي في آن.

وضع عبد القادر قبَّاني، بدايةً، عرضاً نشره في مجلَّة «الكشَّاف»، سنة 1927، موضوعه «بيروت: حياتها وتحوُّلاتها»؛ وهو عرض ذو اهتمامٍ تأريخي اجتماعيٍّ، ولعل فيه ما يُعتبَرُ إحدى بذور الدِّراسات التَّاريخيَّة الاجتماعيَّة، في نموِّ المدينة. وكان أن تابع، جورج يزبك، في السَّنة التَّالية، على هذا المنوال من الدرس التَّاريخي الاجتماعي؛ فنشر، سنة 1928، في مجلَّة «الكليَّة»، مقالاً موضوعه «الخدمة العسكريَّة في بيروت سنة 1253 هجريَّة». ونشر، شفيق طبَّاره، بعد هذا بحوالي ربع قرن، مجموعة من المقالات التَّأريخيَّة والتَّاريخية، معاً، بين سنتي 1955 و1957، في مجلَّة «أوراق لبنانيَّة»؛ تناول فيها بعض المواقع المكانيَّة في بيروت، ومنها سور المدينة وأبوابها، وبعض معابدها ومزاراتها، وكذلك المناطق القديمة المحيطة بها، والتي صارت جزءاً لا يتجزَّأ منها. ولعل المرء لا يجافي الواقع، في نظره إلى هذه الأعمال، على أنَّها من باب محاولات التَّأريخ التَّوصيفي المباشر؛ إذ يجد أنَّ معظمها نحا، في كثيرٍ من جوانبه، إلى الوصف المباشِر، وقلَّ أن اعتمدّ التَّوثيق الدَّقيق، أو وصل إلى ساحات التَّحليل المعمَّق والاستنتاج الأكَّاديمي الرَّكين.

قامت زاهية قدُّورة، سنة 1979، بخطوة تأسيسيَّة، في مجال تظهير تأريخ بيروت؛ إذ عمدت إلى كتاب «تاريخ دمشق»، لابن عساكر، المتوفَّى سنة 1167، واستخرجت منه، في جهد تجميعيٍّ توثيقيٍّ معتبر، ما رأته يتعلَّق بمدينة بيروت، في القرنين الأول والثَّاني للهجرة. وانشغل، من جهتهِ، الشَّيخ طه الوَلي، بين سنتي 1973 و1993، بوضع عملين تأسِّيسيَّن، أحدهما «تاريخ المساجد والجوامع الشَّريفة في بيروت»، وثانيهما «بيروت في التَّاريخ والحضارة والعمران»؛ فيكون، بهذا، من الرُّواد الذين اعتنوا بتأريخ للمساجد في بيروت؛ كما يكون من التَّاريخيين، الذين سعوا إلى البحث في موضوع حضاري تاريخي يتعلَّق بالمدينة. ولئن كان عمل زاهية قدُّورة، هذا، قد اتَّسم بالبُعد الأكّاديمي في وضع ما استخلصته من «ابن عساكر»، وترتيبه وعرضه؛ فإنَّ ما قدَّمه الشَّيخ الوَلي، اتَّسم بغلبة الوفرة المعرفيَّةِ، القائمة على السَّرد التَّوصيفي، على حسابِ كثيرٍ من مجالات التَّحليل المعمَّق والاستنتاج الرَّصين.

تمكَّن حسَّان حلاَّق، بين سنتي 1985 و1987، من تقديم خدمة أساسٍ، إلى البحث التَّأريخي للمدينة، إذ استعان بـ«سجلاَّت المحكمة الشرعيَّة في بيروت». تتَّضحُ أهميَّة هذا الأمر، في ما تحويهِ هذه السِّجلات، بحكم طبيعة مادتها، من وثائق، تُشير إلى أحداثٍ عديدةٍ ومتنوِّعةٍ؛ كما إنَّها ترصدُ معاملاتٍ كثيرةٍ ومتعدِّدة، وتذكُر، كذلك، مواقع غفيرة لأماكن ومطارح وساحات. لا بدَّ من الملاحظة، ههنا، أنَّ هذه السِّجلاَّت، لا تقف عارية في فضاء تاريخ بيروت، بل تتجلبب بذكرِ أناسٍ، من المسلمين وسواهم، ممَّن ارتبطوا بأحداثها وشهدوا على أمورها وسعوا في مناكب بنيانها. هذه، في واقع الحال، سجلاتٌ مَكْمَنٌ لوثائقَ ذات أبعادٍ اجتماعيَّة وتجاريَّة عامَّة. المؤسف، في أمر هذه السِّجلات، إنَّها تقتصر على شمولها الزَّمن البيروتي، بدءاً من سنة 1843 للميلاد، ولا تذهب إلى ما هو قبل هذا التَّاريخ؛ وأنَّ كثيراً من هذه السجلاَّت، ما برح ينتظر من يتابع العمل على تحقيق مواده وتوثيق أحداثه وتحليل مضامينه، ليتم استنتاج أغمار كبرى، ما برحت غائبة، من تاريخ المدينة. ولذا، فإنَّ الحسرة تبقى دائمةً، في التَّساؤل، العلميّ والوجدانيِّ، عن مصير سجلات السَّنوات التي سبقت، وما يمكن أن تحويه من وثائق وشهادات. ولقد أصدر حلاَّق في مجال بيروت، «أوقاف المسلمين في بيروت في العهد العثماني»، و«التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والسياسي في بيروت والولايات العثمانية في القرن التاسع عشر»، و«بيروت المحروسة في العهد العثماني.«

شهدت سنوات الثَّمانينات، من القرن العشرين، وما بعدها، مساهمات وفيرة من العمل على تأريخ بيروت، والإشارة إلى ملامح حيويَّة من وجودها الاجتماعي؛ ولعلَّ ما وضعه كمال جرجي ربيز، سنة 1986، في كتابه «رزق الله عهيديك الإيَّام يا راس بيروت»، يقف علامة بداية الاهتمام باستعراض جوانب من التَّاريخ الاجتماعي للمدينة، وتحديداً بملامح من التَّأريخ الشَّعبي لبعض مجتمعها. ويقف عبد اللَّطيف فاخوري، في هذا المجال، رائداً، ينماز باعتماده على كثير من المرويَّات والأخبار المتوارثة، من جهة، وعلى ما استعان به من «سجلاَّت المحكمة الشَّرعيَّة في بيروت»، وكذلك، على خبرته المباشِرة في الموضوع البيروتي، ومع من تعاون معهم من الثِّقات في معرفتهم للمدينة وناسها وأحداثها. أصدر عبد اللَّطيف فاخوري، سنة 1995، مع مختار عيتاني، كتاب «بيروتنا»؛ كما أصدر لاحقاً، مجموعات عديدة من الأعمال التي سعى عبرها إلى تغطية تأريخيَّة واسعة لجوانب اجتماعية وعمرانية من المدينة، في حقبة القرنين التَّاسع عشر والعشرين؛ منها، في سنة 2006، «تاريخ القضاء الشَّرعي في بيروت 1787-1917»، وسنة 2003، «منزول بيروت»، وسنة 2009، «البيارتة: حكايات أمثالهم ووقائع أيَّامهم»، وسنة 2018، «زوايا بيروت». ولئن كانت جهود عبد اللَّطيف فاخوري، هذه، تضع، بطابعها التَّجميعي والتَّكويني، مدماكاً أساساً في إنشاء مرتكزات معرفيَّة للتاريخ الاجتماعي للمدينة؛ فإنَّها تظلُّ دعوةً مفتوحةً للباحثين، في مجالات الدَّرس الاجتماعي، لينكبُّوا على ما تحمله من ذخائر معرفيَّة، تحليلاً وربطاً وسعياً إلى استنتاجات يمكن الاعتماد الأكاديمي عليها في كشف طبيعة المفاهيم الاجتماعيَّة للمدينة، والبيان الموضوعيِّ لِقِيَمِها ومدارت تطوُّر سلوكيَّاتِ ناسها وأفكارهم.

لا يخفى أنَّ كثيرين تابعوا الجهود المضنية في البحث والكتابة والدراسة في مجالات التأريخ لبيروت؛ والعمل، تالياً، على الدَّرس التَّاريخي، للمتحصِّل من هذا التَّأريخ. والنَّتيجة، أنَّ المكتبة التَّاريخية للمدينة، وخاصَّة، ما يغطِّي منها الحقبات الممتدَّة من القرن الثَّامن عشر وحتَّى الوقت الحاضر، شديدة التَّنوُّع ووفيرة المعارف؛ تشهدُ لكلِّ مَن عمل في ساحاتها، بما قدَّم في مجالات اهتمامه بها.

يبقى، مع كلِّ هذا، أمر لا بدَّ منه، وهو كيف يمكن أن يُجْمَعَ شتات هذين الاهتمامين الأساسين، للخوض المعرفيِّ في ساحات وجود بيروت المتعدِّدة والمتنوِّعة، الممعنة منها في القِدَمِ وتلك النَّاهدة إلى المعاصرة والمشاركة في صناعة الزمن الراهن؟ فهل مِن جَمْع ممكن لكلِّ هذه الوفرة المعرفية؛ وتخليصها، من ثمَّ، من تشتُّتها المعرفي ذي الغزارة والغنى؟ هل مِن من مؤسَّسةٍ أكاديميَّة، مدعومة بتمويل كافٍ لهذه المهمَّة، ومؤازرة بمجموعات متخصصة من الباحثين في شتى المحطات التَّاريخيَّة والموضوعات المرتبطة بها أو المنبثقة عنها، تجهد لجمع هذا تأريخ المدينة وتاريخها، من هذا الغنى الوفير الذي تحويه مكتبتها؛ وتسعى، من ثَمَّ، إلى سدِّ ما يمكن من الثَّغرات التَّأريخيَّة فيه، وما يجب التَّعامل معه من الأمور الأخرى في مجالات التَّاريخ الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والعسكري، ناهيك بالفضاءات الثقتفية والأدبية والفنيَّة؟ هي ذي رؤية إلى نظامٍ معرفيِّ موسوعيِّ أكَّاديميٍ متكامل؛ تكون جمعاً موثَّقاً لتاريخ المدينة، كما تكون مصدراً مُعتَبَراً لمادتها التَّاريخيَّة المعرفيَّة، وكذلك، أداةً علميَّة يَسهُل الوصولُ إليها والتَّعامل معها، من قِبَل الباحث الأكاديمي والدَّارس العلمي، وكذلك من جهة القارئ ذي الاهتمام العام، أو المتحرِّي عن معلومة بحدِّ ذاتها؟

التَّوجُّهات المَوْسُوعِيَّة

أصدر هشام طالِب، سنة 2015، بجهدٍ فرديٍ استغرق منه سنوات طويلة، أوَّل عمل موسوعيٍ يهتمُّ بتاريخ بيروت، «موسوعةُ الحنينِ إلى بيروت». تنهض، هذه الموسوعة على جزئين أساسين كبيرين، تضمَّن كلٌّ منهما مواداً معرفيَّة عديدة، سعى جامعها إلى ما أمكن من تغطية لأحداث تاريخيَّة ترتبط بالمدينة، منذ ماضٍ سحيق لها، إلى زمانها المعاصر؛ كما ضُمَّ، إلى هذين الجزئين، ملحقٌ منفصلٌ، يَضُمُّ لوحات فنيَّة وفوتوغرافيَّة، وسوى ذلك من أمور تشكيلية وبيانية عن بيروت. عمد طالب، في هذه الموسوعة، إلى توثيق كثير من مراجعه؛ كما دأب، في مرَّات كثيرة، إلى عرض مُسْتَلاَّتٍ مُصَوَّرةٍ لِبعض ما اعتمد عليه من وثائق وبيانات.

إنَّ هذا السَّعي، الذي ما قام به هشام طالب، ههنا، بحكم تنوِّع هذه المادة، فضلاً عن ما تتحلَّى به مجلدات العمل الثلاثة، من أناقة طباعةٍ وإخراج وتجليد يغري، بشكل عامٍ، بالإقبال عليه والإفادة من مادته المعرفيَّة. واقع الحال، إن هذا العمل لهشام طالب، يتربَّع بكل جدارة سعيداً في حضرة القارئ الثَّقافي العام، أكثر مما يقدر على سد ثغرات ما قد يتطلَّبه عملُ الباحث، ذي الاهتمامات المختصَّة والدَّقيقة، والذي يستكنه ما وراء الحدث التَّاريخي، ويتطلَّع إلى ما قد يكون من تداعيات له ونتائج. يبقى عمل هشام طالب، الذي هو إعلاميٌّ محترف، وباحث موسوعيٌّ، رائداً، في مجال تنفيذ موسوعة لتاريخ بيروت، فاتح باب تجربة قيِّمة في الاجتهاد التاريخي الموسوعي عن المدينة؛ كما يقف شاهداً على غياب أي دعمٍ رسميٍ أو مؤسَّساتيٍ عامٍ في هذا المجال.

أصدر عصام شبارو، سنة 2018، متابعةً منه لكتابات تاريخية سابقة له عن بيروت، صدرت بين سنتي 2000 و2017، منها، «عين المُرَيْسِه» و«جمعيَّة المقاصد الخيريَّة الإسلاميَّة في بيروت»، و«الرَّئيس عمر الدَّاعوق»، و«الرَّئيس صائب سلام»؛ موسوعةَ «المُطَوَّل في تاريخ بيروت»، بعشرة مجلَّدات، وفي 7048 صفحة، وضمن تسلسل زمنيٍ استغرق ثماني حقبٍ تاريخيَّة مرَّت بها بيروت. قسَّم شبارو الحقب التاريخيَّة التي تناولها، ووفاقاً لما أعطاها من تسميات، «العصر الكنعاني-الفنيقي»، و«الحكم الرُّوماني-البيزنطي»، و«الدَّولة العربيَّة الإسلاميَّة»، و«الدَّولة العثمانيَّة»، و«الانتداب الفرنسي»، و«الجمهوريَّة اللُّبنانيَّة المستقلَّة»، و«الحرب الأهليَّة»، و«عصر الحريري». وكان أن خصَّص، المجلَّد التَّاسع من هذه الموسوعة، المؤلَّف من 788 صفحة، لاستنتاجات توصَّل إليها، وكذلك لفهارس تصنيفيَّة تفصيليَّة شاملة، تناولت ما ورد في الموسوعة، برمَّتها، من شخصيَّات، وأماكن ومواقع؛ بما في ذلك مقار النِّقابات والأحزاب والمؤسَّسات والملاهي والفنادق والمؤسَّسات الطبيَّة والثَّقافيَّة والتِّجاريَّة والمصرفيَّة، وسوى ذلك. ولم يكتفِ شبارو، بهذا جميعه، أردف، هذه الأجزاء جميعها، بالجزء العاشر، وقد ضمَّ 510 صفحات، خصَّه بِعرض صُوَرٍ توثيقيَّة، تدور حول ما دارت عليه موضوعات هذه الموسوعة.

الطَّريف في كلِّ هذا الجهد الموسوعيّ الضَّخم، الغَنِيّ بوفرة مادَّته المعرفيَّة،العظيمة الإحاطة، والشَّديدة التَّنوُّع والشُّمول والعميق التَّبحُّر والدَّقيقة في توثيقها لمصادرها ومراجعها، والإحالة الواضحة إلى مصادرها الأساس ومراجعها المعتبرة؛ أنَّ عصام شبارو، قام بعمله على هذه الموسوعة، جَمْعاً وتَوْثيقاً وتَصنيفاً وعَرضاً، ومِن ثمَّ، تحليلاً واستنتاجاً، طوال ست وعشرين سنة (1982-2008)، أضاف إليها عشر سنوات أخرى (2008-2018)، للمراجعة والطباعة وتدقيقها، بمفرده، وعلى نفقته، ومن دون أيّ دعم مؤسَّساتي، رسميّ كان أو خاصّ. تأتي مكافأة شبارو، في كل هذا، أنَّه أوّل من أنشأ موسوعة معرفيَّة تأريخيَّة وتاريخيَّة، شاملة ومفصَّلة عن بيروت. ولئن كان المعلِّم بطرس البستاني، المتوفَّى سنة 1883، يعرف في بأنه أول من قام بمحاولة حديثة في اللغة العربية لإخراج دائرة معارف كبرى، إذ وضع، كما هو معروف، «دائرة المعارف - قاموس عام لكل فن ومطلب»، في 11 جزءاً، ولا يزيد مجموع صفحاتها عن 8,800 صفحة؛ فإنَّ عصام شبارو، يقف في السَّاحة المعرفيَّة لبيروت، خاصَّةً، وللبنان عامَّة، رائداً فذّاً، في وضع موسوعة معرفيَّة علميَّة وتخصُّصِيَّة مُوَثَّقة، عن بيروت؛ بكل ما هو متوافقٌ عليه، بين الدَّارسين، من عصور تاريخيَّةٍ لها، وما في كلِّ واحد من هذه العصور من فترات وحقب ومحطَّات وشؤون وشواهد، وكذلك بما قد يتطلَّبه كلُّ أمرٍ من هذه الموضوعات، من توثيقٍ وتظهيرٍ وشواهد.

أيَّا كان الحالُ، مِن غياب للدَّعم الرَّسميّ، أو المؤسَّساتي، أو حتَّى الشَّخصي الفرديّ أو المُشْتَرَك، عن العمل في الميدان الموسوعي، التَّأريخي والتَّاريخي، لبيروت؛ فإنَّ هذين الجهدين الفرديَّين والشَّخصيَّن، لهشام طالب وعصام شبارو، يؤكِّدان أنَّ مسيرة البحث العلميّ لا تتوقَّف، أيَّاً كانت الصُّعوبات التي يواجهها القائمون بها. واقع الحال، إنَّ هذا ليس بحال الباحثين الموسوعيّن وحدهم، في مجال العمل على تاريخ بيروت؛ فإن الغالبيَّة العُظمى، ممَّن اشتغلوا على التَّأريخ لبيروت والبحث في تاريخها، ومنهم من ورد ذِكرهم في سِياق هذا العرض المبتسر؛ والذين شغلوا سنوات عمرهم بدراسة وقائع معيَّنة من هذا التَّاريخ، وقدَّموا لها ما تمكّنوا منه من تحليل وما استطاعوا الوصول إليه من استنتاجات؛ إنَّما قاموا بكلَّ ما قاموا به، بمبادرات فرديَّة منهم، وعلى النَّفقة الخاصَّة لكلِّ منهم، وكثيرٌ من أعباء هذه النَّفقات كان على حساب احتياجاتهم الخاصَّة.

خلاصة الأمر، إنَّ بيروت، سيِّدة العواصم ولؤلؤة تاجها، غاليةٌ جدَّاً على قلوب الخُلَّصِ مِن أبنائها، وغزيزة إلى درجة الوله المجنون، عند الأوفياء من ناسها، وأثيرة حتَّى على الذَّاتِ عند أهل العِلمِ، من قادري وجودها والمعترفين بأهميَّته وأحقَّيَّته. ولذا، فما مِن أحدٍ، سعى إلى جهد تأريخيٍّ أو تاريخيٍّ، للمدينة، إلاَّ وأغنى، بما أستطاع الوصول إليهِ، وجود بيروت؛ وكذلك الأمر، فإنِّ بيروت بادلت، وما برحت تبادل، كلَّ من أغناها، بذِكْرِها لهُ في رحابِ ساحاتِ وجودها وتاريخها؛ أحياناً، بمثل ما أغناها به، وفي أحيان كثيرة، بما هو أكثر وأكثر.

هُوَ ذا حُبٌّ لِلْمَدِينَةِ، مِنْ ناسِها، لا يَنْضَب؛ وهي ذي علاقةُ وَجْدٍ بِها لا تَنْتَهي؛ وجَميعُ هذا عِشقٌ لن يَتَوقَّف تأريخُ وقائِعِه، وسَيَسْتَمرُّ السَّعيُ الدّؤوبُ إلى تحليلِ أحداثِهِ ودراستِها، وسيبقى الكدُّ العلميُّ الرَّصينُ الطَّامحُ إلى تبيانِ ما في العِلم عن بيروت مِن أبعادٍ ومفاهيمَ وقِيَمٍ، منارةً لدروب البحثِ وهدايةً مشعَّةً لِأَهْلِهِ.

ستبقى بيروت جَهْدَ مثابرةٍ حبيباً وعزيزاً، في ساحات المعرفةِ، لتأريخ أساس وتاريخ غني، لن ينفذا أبداً إنَّه مدادُ حِبْرٍ، صَميمُ تركيبته الوَلَهُ بسيّدة العواصم؛ وهذا الحِبرَ لن يجفَّ، على الإطلاق. إنَّ الحِبْرُ، الذي يؤرِّخ لبيروت ويكتب عن تاريخها، سيبقى أخضرَ مِعطاءَ؛ وستبقى أنهارٌ المعرفةِ، تَعُبُّ مِن روافدِ عطاءاتِ الباحثين في انفساحاتِ وقائع وجود المدينةِ وتمدُّداتِها، طولاً وعرضاً وعمقاً وفي الآفاق.

بيروت، يا غِنى العُمرِ وحلم الوجود. بيروت، مهما تَكَسَّرتِ النِّصالُ على النِّصالِ اليومَ، ونحن نعيشُ تعاسة هذا الزَّمَنِ المَنْكُودِ والقَنُوطِ والمُعْدَمِ، نعاني فيه العذاب والوجعَ؛ فإنّي باقٍ على عِشْقِ تُرابِكِ، مُصِرٌّ على التَّعلُّقِ بِحنايا زواريبِ أحيائِكِ، لصيقٌ بمنعطفاتِ شوارِعِكِ وغائصٌ في احتشاد النَّاسِ في ساحاتِكِ وأسواقك. سأظَلُّ، يا بيروت، مُدْمِنَ الهَوَسِ بشخصيّاتِ تاريخكِ الشَّعبِيِّ، والباحث الدَؤوب في بطولاتِ مثقَّفيكِ ولُقى علمائك، الذين بنوا معارف عصرِك؛ وسأواظِبُ، مثلَ أيِّ تلميذٍ مُبتدئٍ، لا همَّ لهُ سوى الفَوزَ بإعجاب أساتذتهِ والحصولَ على مرضاة والديهِ جرَّاء نيله هذا الإعجاب، أن تكوني يا مدينتي، ويا عُمري، ويا منطلق حياتي، عنوانَاً لوجدانِ حضوريَ الإنسانيّ.

بيروت، لن يمكنني إلاَّ أن أبقى مُقيماً على شَغَفٍ نَهِمٍ مَجنونٍ، لن يُبارِح كياني، ما حَيِّتُ؛ بأن تظلّي، دَوْماً وأبداً، سِتَّ الدُّنيا، وأظلُّ لكِ، هذا العاشقُ المُغرَمُ، بل الصَّبُّ والمُسْتَهام في هواكِ، والمتمادي في وَلَهِهِ، بكِ، هائماً مُدنَفاً بكلِّ ما في كيانهِ من وعيٍ وجنون.

***

ملاحظة
يحتوي كتاب "الحنين إلى بيروت" على عدة أخطاء تاريخية أشار إليها المؤرخ عبد اللطيف فاخوري في رسالة له بعنوان "ما هكذا يكون الحنين إلى بيروت". فاقضى التنبيه.

